الفصل الثالث

الإسلام دين ودولة

الفصل الثالث

الإسلام دين ودولة

لقد وجدنا أنه من الضروري قبل البدء في مناقشة موضوع كتابنا أثر صيانة حقوق الإنسان النفسية على إدارة الموارد البشرية، أن نتحدث عن قضية لا تقل في خطورتها عن خطورة ضياع الأخلاق على المجتمعات الإنسانية، ألا وهى قضية فصل الدين عن أمور الحياة المتعددة، والبعد عن تطبيق الشريعة الإسلامية بالذات على مجالات الحياة المختلفة، والرد على الرأي القائل بأن الإسلام هو دين فقط.

والحقيقة أننا لا نبالغ إذا قلنا أن السبب الرئيسي وراء مشاكل العالم الإسلامي، بل ومشاكل العالم أجمع، إنما يرجع إلى إهمالنا لتطبيق الشريعة الإسلامية، وما صنعناه من حالة فصل بين الدين والحياة. ذلك الدين العالمي الذي بعث به الرسول ﷺ للناس كافة، والهدف تحقيق السعادة للإنسان في كل مكان، وكل زمان، وذلك بإشباع حاجات الإنسان المادية منها، والنفسية.. فقد تخطت الشريعة الإسلامية الحقوق المادية للإنسان، إلى العناية بحقوقه النفسية التي عنى بها القرآن الكريم، والسُنة النبوية المطهرة.

إن رسالة الإسلام لم تكن موضعية محددة، يختص بها جيل من الناس دون

جيل، أو قبيل دون قبيل، بل كانت رسالة عامة للجميع. قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ [الفرقان: 1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ ﴾ [سبأ: 28].

وما يبين عالمية رسالة الإسلام، ما اتصفت به الرسالة من صفات تؤكد عالميتها، ومنها:

1- أنه ليس فيها ما يصعب على الناس اعتقاده، أو يشق عليهم العمل به، قال الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [البقرة: 286].

وفى البخاري من حديث أبى سعيد المقبرى أن رسول الله ﷺ قال: "إن هذا الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحدُ إلا غلبه".

2- أن ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالعقائد والعبادات جاء مفصلاً تفصيلاً كاملاً، موضحاً بالنصوص المحيطة، فليس لأحد أن يزيد أو ينقص منه، وما يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالمصالح المدنية، والأمور السياسية والحربية، جاء مجملاً، ليتفق مع الناس في جميع العصور، ويهتدي به أولوا الأمر في إقامة الحق والعدل.

3- أن كل ما فيها من تعاليم إنما يقصد به حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، وبديهي أن هذا يناسب الفِطَر ويساير العقول، ويجارى التطور، ويصلح لكل زمان ومكان. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأعراف: 32-33]

وقال جل شأنه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: 156-157].

ومن هذه الصفات تتضح لنا الكثير من أهداف رسالة الإسلام، نذكر منها:

1- تزكية النفس وتطهيرها عن طريق المعرفة بالله وعبادته.
2- تدعيم الروابط الإنسانية، وإقامتها على أساس من الحب والرحمة والإخاء والمساواة والعدل. (سابق، د.ت: ص ص 9، 10)
3- ومن الهدف السابق تتحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2].

وحسبنا دليل على أهمية تطبيق الشريعة على الأمور الدنيوية، أن التشريع الديني المحض – كأحكام العبادات – لا يصدر إلا عن وحى الله لنبيه ﷺ، من كتاب أو سُنة، أو بما يقره عليه من اجتهاد وكانت مهمة الرسول في هذا الشأن لا تتجاوز دائرة التبليغ والتبيين: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: 3-4].

أما التشريع الذي يتصل بالأمور الدنيوية من قضائية، وسياسية، وحربية، فقد أُمِرَ الرسول ﷺ بالمشاورة فيها، وكان يرى الرأي فيرجع عنه لرأى أصحابه، كما وقع في غزوة بدر وأُحُد، وكان الصحابة رضي الله عنهم يرجعون إليه ﷺ، يسألونه عما لم يعلموه، ويستفسرونه فيما خفي عليهم من معاني النصوص، ويعرضون عليه ما فهموه منها، فكان أحياناً يقرهم على فهمهم، وأحياناً يبين لهم موضع الخطأ فيما ذهبوا إليه. سابق (د.ت: ص11)

إن الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة هو أصل من أصول الإسلام، أو بعبارة أخرى: لا عزلة بين الدين والدنيا، والإسلام لا يوجب على الأفراد حياة تقشف الزهاد، وقد وردت في ذلك الكثير من الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص: 77]

كما أن الإسلام أباح لأهله التجمل بأنواع الزينة، يقول تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: 33].

لقد جاء الإسلام بشريعة أي بعدة أحكام قانونية تنظم شئون الحياة الدنيا (من أحكام مدنية وجنائية وأحوال شخصية... الخ) لذلك كان طبيعياً أن يعنى بإقامة دولة وحكومة تعنى بتنفيذ تلك الأحكام القانونية، والتي تشمل بعض قواعد أو مباديء عامة تتعلق بشئون الحكم تصلح لكل زمان ومكان، كمبادئ الشورى والحرية والمساواة والعدالة والتعاون... الخ.

يقول تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: 159].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: 105].

لقد قام الرسول ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة بتأسيس دولة بالفعل. حقاً لقد بدأ الرسول ﷺ بمكة هادياً وبشيراً ونذيراً، فكان الرسول بمكة رسولاً فحسب، ولكنه بعد أن انتقل إلى المدينة أصبح كذلك رئيس دولة، فلم يكن صحيحاً ما ذكره البعض من أن أبا بكر – رضى الله عنه - كان المؤسس الأول للدولة الإسلامية، فالواقع أن ما عمله أبو بكر ومن تبعه من الخلفاء إنما كان العمل على توسيع نطاق دولة سبق إنشاؤها، فرغم ما كانت عليه الحكومة من البساطة في عهد الرسول ﷺ

بالمدينة إلا أنها كانت دولة مستوفية جميع أركانها ولقد وضع الرسول الخطوط العريضة لدولة إسلامية من نظام للضرائب، ونظام قانوني وأنظمة إدارية وعسكرية ... الخ، وكانت تنطوي هذه الأنظمة على نواة أو جذور تطورها وملاءمتها مع ظروف البيئة المتغيرة، وكان ما يصدره الرسول من تعليمات وأوامر وأحكام تنطوي على جزاءات دنيوية عاجلة، لا مجرد تهديدات بجزاءات في الآخرة، كما كان لديه أعوان إداريون.

إن الكثيرين من الباحثين الغربيين ومن المستشرقين الذين بحثوا هذا الموضوع قد انتهت بهم بحوثهم إلى أن الإسلام دين ودولة، وأن الرسول ﷺ لم يكن رسولاً فحسب، وإنما كان كذلك حاكماً ورئيساً للدولة حيث يقول: "أن الرسول كان رئيساً للدولة ورئيساً دينياً، فقد كان هو الذي يهيمن على السلطة السياسية، كما يقوم بمهام السلطة التشريعية وبمهمة القضاء..... الخ. (متولي، د.ت: ص ص 56-58)

ونرى أن السبب الرئيسي وراء هذه الحالة من التغريب، هو التقليد الأعمى للغرب، والنقل عنهم دون تفنيد ودراسة نخرج منها بما يتناسب معنا من حيث شريعتنا، وقيم مجتماعتنا الإسلامية، بل ذهب الأمر إلى أن البعض منا بدأ الاخذ عن الغرب أمور جاءت في سنة الرسول ﷺ، مثل ما جاء عن الحبة السوداء، وهى حبة البركة، فعندما اكتشف الأمريكان قيمة وفائدة حبة البركة التي أوصانا بها النبي ﷺ صنعوها في شكل حبوب وجعلوا اسمها " هبة البركة " وروجوها في الأسواق فأصبح لها قيمة واستخدمها الناس وصدقوا منافعها، وفى ألمانيا عرفوا الحجامة وقيمتها وأثرها فاستخدموها بل وقاموا بتدريسها في كليات الطب البديل باعتبارها إحدى أقوى وسائل تنشيط جهاز المناعة لمقاومة جميع الأمراض دون أن يذكروا مصدرها أو يروا الأحاديث النبوية العديدة التي تمتدحها كأفضل وسيلة للتداوي من الأمراض. (حشيش، 2009: ص19)

لقد احترمنا ما أمرنا به الرسول الكريم وهو في الأساس علم ألهى نبأ به النبي ﷺ، لمجرد أن علمنا أن الغرب أهتم به وأجله، نفس الأمر يحدث في ما تشهده

المجتمعات الإسلامية من إضراب منقول أساساً عن الغرب، ولكن كالعادة هو نقل فوضوي غير منظم، ويرجع ذلك إلى سببين:

- الأول: أننا نسينا أن علينا واجبات مثل ما نطالب به من حقوق.
- الثاني: أن معظم الحكومات شعرت أنها ولية أمرنا أو "كبير الأسرة"، وبالتالي فعلينا أن ننصاع لها صاغرين فهي تفهم أفضل منا !.

فالناس شعرت أن الدولة تحترم الطرف صاحب الصوت العالى الذي يطلق عليك الكلمات ويحاصرك فقرروا جميعاً أن يكونوا المعتصمين والمحتجين على سلالم النقابات، أو في ساحات المصانع، أو أمام المساجد، أو حتى أمام المجالس النيابية.

ونحن في الدول العربية والإسلامية نعيش حالة غريبة من التناقض، نقول أننا نريد أن نصبح مثل الدول المتقدمة في الإضرابات للمطالبة برفع الأجور.. لكننا لا نتطرق قط إلى عدد الساعات التي يعملونها.. متوسط الإنتاج في العالم المتقدم 7 ساعات يومياً وعندنا 40 دقيقة على الأكثر، ولأننا نتعلق بالظواهر وننسى الجوهر، تعلقنا بأحوالهم المادية ورفضنا أن يكون علينا نفس الالتزامات التي عليهم.. حجتنا أننا لا نأخذ أجراً يماثل ما يتقاضونه مع أننا نقف خلفهم بمسافات طويلة في مهارات العمل والإنتاج والتحصيل وغيرها. (إبراهيم، 2009: ص1)

وقد وصلت فوضى الإضرابات إلى مهن حيوية حيث أضرب الصيادلة في مصر عن العمل وأغلقوا صيدلياتهم (جريدة الأهرام، 2009: ص1)، ويعد ذلك كارثة بكل المقاييس، فهي مهنة تتعلق بحياة الناس وصحتهم، ولها نظام يختلف عن أي مهنة أخرى، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تمتنع عن نجدة الناس لمجرد الاعتراض على قرار حكومي، حتى ولو كان قرار غير مدروس، وهو في ذلك يساير ما تعيشه الأمة الإسلامية من فوضى في كل شيء له علاقة بالتنظيم وتنمية المجتمع، والتي وصلت في النهاية إلى فوضى الفتاوى الدينية.